هذا قميص ابي

نهضت أم خالد من سريرها متثاقلة على صوت جرس الباب المستفز في مثل هذا الوقت من الليل، نظرت إلى الساعة بجانبها، إنها الثانية عشرة (منتصف الليل)، من ذا الذي سيأتيها الآن؟! لم تعتد أن يزورها أحد في مثل هذا الوقت أو على الأقل بدون موعد سابق، سحبت روبها المعلق بجانب السرير وبحثت عن شيء تضعه في قدميها فلم تجد (شبشبًا) أو (صندلاً) أو حتى حذاء قريبًا منها، آه إنه الكلب اللعين يأخذ دائمًا (مداساتها) يلهو بها، فأخذت تمشي على أطراف أصابعها وتردد:

ـ أعوذ بالله.. اللهم اجعله خير..

فقد انقبض قلبها وخاصة أن زوجها سافر إلى مدينة العريش لمتابعة اللمسات الأخيرة في تجهيز الشاليه الخاص بهم ليكون ملاذًا لهم من حر وزحام القاهرة في الصيف.

ولما كان زوجها قد اتصل بها منذ أقل من ساعة تقريبًا من العريش للاطمئنان، فمن غير المعقول بل من المستحيل أن يكون هو الطارق.

هكذا أخذت أم خالد تتحدث إلى نفسها وهي في طريقها إلى باب الشقة، وعند باب الشقة وجدت (كينج) وقد سبقها رافعًا أذنيه فاتحًا فمه مدليًا لسانه بارزًا أنيابه استعدادًا لأي حدث مفاجئ.

(كينج) كلب بوليسي تركه لها وحيدها خالد قبل رحيله إلى حياته

الجديدة في صحبة زوجته الألمانية، ولما حاولت أن تستبقيه بشتى الطرق وهي تستعطفه وتتوسل إليه أن يبقى هو وزوجته ويساعد والده في إدارة أعماله ومتابعة مشاريعه قال لها ضاحكًا:

ـ جرى إيه يا أم خالد ده حتى جحا لما سألوه بلدك فين يا جحا قال اللي فيها مراتي.

ولم تعلق أمه على كلامه هذا لأنها تعلم أن لكل منا قدره، أكد خالد على أمه وهو يودعها ألا تفرط في (كينج) تحت أي ظرف، وكان من حب (كينج) لخالد أنه أصيب باكتئاب لم يستمر طويلاً بسبب رعايتهم الطيبة له.

قالت أم خالد بصوت عالٍ وهي تضيء الأنوار:

ـ مين؟

وقبل أن يأتي الرد رأتها من العين السحرية، إنها سامية أرملة صديق زوجها، ففتحت لها الباب مسرعة. رأتها صفراء اللون كليمونة جفت عصارتها، أخذتها في أحضانها وجدتها باردة كلوح ثلج غير قابل للذوبان زائغة العينين.

سألتها أم خالد وهي تجلسها على سريرها:

ـ هل ابنتك بخير يا سامية؟

هزت رأسها بالإيجاب ولم تنبس ببنت شفة.

ـ هل حدث مكروه لأحد من أهلك والدك/ أخواتك/ زوجة أبيك .

بعد صمت قليل، هزت رأسها بالنفي .

قالت أم خالد (بهدوء) :

ـ سامية أريدك أن تستبدلي ملابسك، وتأخذي حمامًا منعشًا يتبعه كوبًا من اللبن الدافئ وبعدها تروي لي ما بك، فزوجي في العريش ولن يعود إلا بعد الغد .

أم خالد (والتي منذ أن رزقت بابنها خالد لم تسع الفرحة قلبها وقلب زوجها فقد جاء خالد بعد سبع سنوات من الزواج ولم يرزقها الله بغيره طوال عمرها فأحبت بل وكانت متعتها أن يناديها كل الأقارب والأصدقاء بأم خالد) تركت الحجرة لسامية بعد أن وضعت لها بشكيراً وقميص نوم وفتحت لها باب حمامها الخاص الملحق بغرفة نومها قائلة :

ـ سأتركك تنعمين بحمامك وآخذ كينج إلى مرقده فقد هدأ بعد أن اطمئن إليك، ثم أعد لك كوب اللبن الدافئ .

في المكان المخصص لـ(كينج) وجدت أم خالد (مداساتها) التي اختفت فقد كان من أحب الهوايات إلى (كينج) اللعب بالشرابات وتمزيق المداسات .

وضعت إناء اللبن على نار هادئة وجلست تشعل سيجارتها الأخيرة لهذا اليوم فمع تحذيرات الأطباء قررت لنفسها خمس سجائر فقط يوميًا . حتى يأتي اليوم الذي تستطيع أن تتوقف عن التدخين نهائيًا .

قالت أم خالد كمن تحدث نفسها :

ـ آه لو لم تأت سامية الآن لكنت قد نجحت في توفير هذه السيجارة لرصيد الغد . غير مهم ذلك الآن .

ثم سرحت بخيالها وتوقفت عند أول لقاء لها مع سامية وكان منذ أكثر من خمس سنوات في مدينة فرانكفورت بألمانيا عندما جاءها زوجها (أبو خالد) وقال لها فرحًا :

ـ سأزف لك خبراً سعيدًا فسوف تصل عروس صديقي جمال بعد غد على الطائرة القادمة من القاهرة في تمام الساعة الثامنة مساءً . ولذا أريد منك أن تعدي لنا احتفالاً صغيراً على طريقتك لأننا سنأتي بها من المطار إلى هنا على الفور لقضاء السهرة وتناول العشاء، ثم بعد ذلك نوصلهم إلى عشهم السعيد .

لحظتها ارتسمت على وجهي فرحة مصحوبة بدهشة لاحظها زوجي فأضاف قائلاً :

ـ أنا أيضًا اندهشت عندما علمت بالخبر . فجمال صديقي وزميلي وكان رافضًا لفكرة الزواج، ولكنه فاجئني بعد أن أرسل توكيلاً لأخيه ليتم له هذه الزيجة على تلك العروس التي اختارتها له شقيقته .

جاءت العروس جميلة ـ رشيقة ـ تصغره بحوالي عشرين عامًا بل وأكثر، عندما يقع بصرك عليها تشعر أن هناك شيئًا ما منكسر بداخلها، شعور بالهزيمة يطل من عينيها، لا تتكلم إلا نادراً، نظراتها حزينة كذبيحة مساقة لقدرها في ليلة ذبحها دون أي اعتراض منها .

بعد عام من عرس سامية تكررت الأحداث، كنا نودعها في نفس المطار (مطار فرانكفورت) وعلى نفس الطائرة وهي تحمل بين ذراعيها طفلتها وبين جنباتها نفس انكسارها والنظرة الحزينة، ربما كان لها عذرها في هذه المرة فقد كان بصحبتها نعش زوجها الذي توفى فجأة إثر أزمة قلبية.

جلسنا سويًا في انتظار الطائرة التي أعلن عن تأخير موعد إقلاعها ساعة، نظرت لي سامية حينها قائلة:

ـ مهما حاولت أن أعبر لك عن مشاعري وأشكر لك سعة صدرك وعطفك علىّ واحتضانك لي طوال العام الماضي الذي قضيته معكم لن أستطيع أن أوفيكم حقكم، وكان لصحبتك أنت بالذات الأثر الكبير في نفسي.

قلت لها في محاولة مني لتخفيف الموقف:

ـ أظن أن أسرتك ستسعد برؤية ابنتك الجميلة رنا.

رأيت دموعها تنهمر فجأة وكأن الجليد في مقلتيها قد ذاب، ضممتها إلى صدري وقلت:

ـ هذه إرادة الله والمرحوم انتهى أجله عند هذا الحد، وكلنا به لاحقون كل منا في ميعاده.

قالت (بحرقة):

ـ إن المرحوم قد ارتاح، إني أبكي على حالي وحال ابنتي.

وبعد فترة صمت قصيرة بدأت تحدثني لأول مرة عن نفسها وعن أهلها قائلة:

ـ زوجتني زوجة أبي بهذه الطريقة.. أرسلتني كطرد لزوج لم أره أو أعرفه حتى تتخلص مني. فأمي كانت فلاحة جميلة جداً من بلدة أبي تزوجها أملاً في أن تلد له ابنًا ذكراً بعد أن أنجبت له زوجته الأولى أربع بنات، بعدها رشحت عماتي أمي ليتزوجها أبي أملاً في الولد. فلما رزقت بي ظل أبي يؤنبها كما لو كانت هي المسئولة أن تلد أنثى أو ذكراً، لم تتحمل أمي ذلك كثيراً ولاقت ربها وأنا لم أكمل عامي الأول بعد، ثم تولت إحدى عماتي تربيتي حتى الخامسة من عمري بعدها أخذني أبي إلى زوجته لأكمل حياتي مع باقي أخواتي، ولكنهن كن أكبر مني سنًا وأقل مني جمالاً، هذا الجمال الذي جعلهن يحقدن علىّ ويكرهنني وخاصة زوجة أبي التي كانت كثيراً ما تختلق المشاكل معي وكان كل ذنبي عندها أني أشبه أمي إلى حد كبير.

ابتلعت سامية ريقها وسرحت قليلاً قبل أن تُكمل ثم قالت:

ـ بمرور الوقت تزوجت ثلاث من شقيقاتي ولم يبق سواي وأختي كوثر التي تكبرني بعامين، وكنا قد وصلنا معًا إلى الثانوية العامة لتخلفها في بعض سنوات دراستها. كنت أحظى بإعجاب كل المحيطين بي، كانت أمنيتي أن أكمل دراستي، ولكن زوجة أبي ـ سامحها الله ـ أرادت أن تبعدني عن طريق ابنتها التي كانت تشعر أني أفوقها جمالاً وذكاءً، فسعت لتزويجي من المرحوم جمال الذي كان

شقيقًا لإحدى صديقاتها، ولم تترك لي فرصة الاعتراض أو حتى التأجيل إلى ما بعد امتحان الثانوية العامة الذي لم يكن متبقيًا عليه سوى شهرين فقط، ولكنها أصرت على تزويجي في الحال.

تنهدت سامية بحرارة ونظرت إلى لاشيء، واستطردت بنبرة حزينة:

ـ ها أنا ذا لم يمض على زواجي غير عام أعود بعده إلى أهلي حاملة وحيدتي ونعش زوجي.

رحلت سامية من ألمانيا وكأن الله قد أراد لها هذه الزيجة القصيرة لسبب ما، وكأن المرحوم كان مكلفًا من السماء لمهمة خاصة تجاهها، فوهبها الله منه ابنة جميلة وثروة لا بأس بها.

استأنفت أم خالد ذكرياتها وهي تعد الحليب لسامية:

ـ أحدث رحيل سامية بنعش زوجها زلزالاً في حياتي أنا وزوجي، فتملكنا الرعب وسيطر علينا الفزع من المجهول، قال زوجي: الغربة قاسية والعمر ينتهي فجأة... لا لن أتركك تواجهين نفس المصير.. لا بد أن ننهي أعمالنا ونعود فوراً وبشكل نهائي لنستقر في وطننا مصر.

تنبهت أم خالد على نباح (كينج) لتجد اللبن يغلي ويفور فوق النار، ووجدت السيجارة في يدها قد اشتعلت وانتهت دون أن تأخذ منها نفسًا واحداً.

قالت وهي تجلس على طرف السرير بجانب سامية:

ـ اشربي اللبن واهدئي تمامًا وقصي عليّ إن شئت ما حدث فربما كان بإمكاني مساعدتك والتخفيف عنك. أما إذا كنت في حرج من مصارحتي، فدعينا نشاهد شيئًا مسليًا بالتليفزيون أو فيلمًا كوميديًا على جهاز الفيديو.

قالت سامية وهي تضع رأسها على كتف أم خالد:

ـ ما اعتبرتك أبدًا إلا أختًا كبيرة لي لا أخفي عنها شيء.

قالت أم خالد:

ـ بل اعتبرتك دائمًا ابنة لي. فكم كنت أتمنى أن يرزقني الله بابنة تأنس لها شيخوختي ولكن الله أراد أن لا يكون لي غير ولد واحد (خالد) الذي تزوج وسافر مع زوجته إلى ألمانيا ليستقر هناك، فحمداً لله أن التقيت بك فكنت الابنة التي لم ألدها.

قالت سامية:

ـ تعلمين أني بعد وفاة المرحوم وعودتي إلى الوطن قررت أن أستقل بحياتي أنا وابنتي رغم ما أبدته زوجة أبي من ترحيب بالإقامة معها وخاصة أن البيت قد خلا إلا منها هي ووالدي بعد زواج صغرى بناتها.

هدأت سامية قليلاً بعد أن شربت كوب اللبن وداعبت (كينج) الذي جاء يتمسح بها وابتسمت قائلة:

ـ منذ فترة اشتريت سيارة صغيرة/ أشبعتني حيازتها كثيراً من السخرية والتريقة.. البعض داعبني قائلاً ـ علقيها بميدالية ـ وآخر كان أكثر

ظرفًا عندما كنت أبحث لها عن مكان لأركنها فيه فأسمع من يقول : بوسيها وضعيها جنب الحائط ، ومع ذلك أحببتها فقد كانت تقيني شر زحمة المواصلات .

فجأة انتفضت سامية واقفة كمن تذكرت شيئًا كان غائبًا عنها وقالت وهي متجهة إلى حيث يوجد التليفون :

ـ اسمحي لي أن اتصل ببيتي حتى أطمئن وأطمئنهم فقد خرجت من البيت مسرعة بعد أن جاءني شادي .

قالت أم خالد :

ـ أليس شادي هو ابن شقيقتك الصغرى كوثر ؟

قالت :

ـ لا شادي هو الابن الأكبر لشقيقتي الكبرى كريمة . . كريمة تكبرني بعشر سنوات ولكنها تبدو في مثل سني أو أصغر .

قالت أم خالد :

ـ آه . . دي اللي جوزها فهمي بتاع التليفزيون . . صحيح مش باين عليها خالص إنها أكبر منك . . وشادي يا ترى عنده كام سنة ؟

قالت سامية :

ـ شادي هو الكبير ، إنه في السادسة عشرة من عمره ، أما شقيقه الأصغر سامي فعنده أربعة عشر عامًا ، أحببتهما بشدة وهم أيضًا يحبونني كثيرًا . . سبحان الله الأولاد حنينين جدًا على رغم قسوة أمهم وأبيهم .

قاطعتها أم خالد :

ـ الحقيقة وبدون زعل زوج أختك فهمي سمعته في شغله سبقاه . . لكن قوليلي أنا سمعت من فترة إنه جاءك بعريس من أقاربه .

قالت سامية بحدة :

ـ لقد رفضت فكرة زواجي بنفس الأسلوب مرة أخرى وأعتقد أنه آن لي أن أختار زوجي بنفسي وخاصة أن شريف كان قد دخل حياتي .

قالت أم خالد بلهفة :

ـ من شريف ده ! ؟ وكيف تعرفت عليه ؟

لمعت عيناها بنظرة لا يُعرف كنهها : أهي ألم ، أم ندم ، أم حب ، أم ماذا ؟ .

ودون تعليق صارت أم خالد واثقة أن قدوم سامية في مثل هذا الوقت وبهذه الصورة لابد أن يكون بسبب هذا الشريف . فسامية بسيطة طيبة إلى أبعد الحدود ، ويمكن أن تكون فريسة سهلة لأي مخادع في زمننا هذا وخاصة أن بها من المغريات ما يجعل الكثيرين يطمعون فيها . . مال وجمال وشباب .

صمتت سامية برهة كمن ترتب الأحداث في ذهنها .

قالت لها أم خالد مشجعة :

ـ أخبريني بقصتك فقد أصبحت شغوفة لمعرفتها .

تنهدت سامية وهي تقول :

ـ دخل شريف حياتي لا أعرف كيف هل مصادفة أم تدبير من القدر .

ففي بداية ممارستي لقيادة السيارة كنت أقودها بخوف وحذر وإذا بشاب عاطل يظهر أمامي فجأة ويلقي بنفسه على سيارتي مستميتًا .

قالت أم خالد مقاطعة :

ـ إنها حركة مكشوفة يمارسها العاطلون لابتزاز أصحاب السيارات وخاصة إذا كن من النسوة .

قاطعتها سامية :

ـ المشكلة وقتها أن رخصة القيادة ورخصة السيارة لم يكن معي فذهبوا بي إلى قسم الشرطة ومن هناك اتصلت بشقيقتي كريمة أستنجد بها . جاءني صوتها عبر أسلاك التليفون مصحوبًا بضحكتها الرنانة يطمئنني أن المسألة بسيطة جدًا وليس علىّ إلا الانتظار قليلاً وسوف ترسل لي من يساعدني وينقذني من هذا الموقف .

بدون توقف استمرت سامية قائلة :

ـ مر الوقت وأنا في حجرة (النوبتجية) أنتظر المنقذ القادم من طرف أختي . عالم آخر في (النوبتجية) . . قصص تمزق القلب من الحزن وقصص تميت القلب من الضحك .

ـ هل طال انتظارك في حجرة النوبتجية؟ وهل جاءك أحد من طرف أختك؟

تنهدت سامية وقالت :

ـ نعم/ شاب طويل القامة وسيم الشكل أنيق في ملبسه الميري يتمتع بجاذبية خاصة لا تخطئها العين . دخل مسرعًا ناحيتي مادًا يده جاذبًا يدي ونهض بي من على الكرسي الخشبي الذي دغدغ عظامي .

قالت أم خالد كمن اكتشفت سرًا :

ـ آه إنه بالقطع شريف .

أجابت سامية :

ـ الرائد شريف قالها وهو يضغط على يدي بكلتا يديه . شعرت وقتها إني في مأمن وأن يداي مستكينتان بين يديه كطائر جريح استكان لعشه .

لم تتمالك أم خالد نفسها وقالت لها مبتسمة :

ـ آه . . الحب جميل . . هل لك في كوب آخر من اللبن أم تأخذي عصير برتقال .

لكن سامية استأنفت كلامها وكأنها لم تسمعها قط :

ـ دخل شريف حياتي وأصبح كل حياتي . اتفقنا أن يظل الأمر سرًا بيننا حتى يأتي الوقت المناسب لنعلن عن حبنا بالزواج .

سألتها أم خالد :

ـ وهل أنت واثقة من بحبه، وهل يحبك بقدر حبك له؟

لم تجبها ولكنها أخرجت مجموعة خطابات من حقيبتها ثم قالت :

ـ هذه خطاباته لي . فقد كنا نتراسل رغم أننا نلتقي يوميًا ولم يمر يوم لم نتحدث فيه تليفونيًا منذ أن التقينا .

أودعت الخطابات جانبًا وقالت لها أم خالد :

ـ دعيها وأخبريني ماذا حدث لكل هذا الحب؟ إني أقرأ في عينيك شيئًا مخيفًا .

قالت بأسى :

ـ اليوم في التاسعة مساءً اتصلت بي شقيقتي كريمة وهي فزعة منهارة ، وجاءني صوتها مهزوزًا مرعوبًا وهي تقول ـ لص اقتحم بيتي ـ لمحه ابني شادي فجرى في أثره ليلحق به وأنا حائرة لا أعرف كيف أتصرف .

سألتها باستغراب ـ وأين زوجك؟

قالت :

ـ من ليلة أمس وهو في عمل خارج القاهرة .

قلت :

ـ وكيف دخل اللص إلى شقتكم؟ . ليس لها مدخل إلا من خلال باب الشقة فكيف صعد إليكم؟ وأين كان البواب؟ إنها مسئوليته .

قالت بانفعال :

ـ ليس مهمًا الآن من أين دخل ولا كيف دخل ولا مسئولية من ، المهم

الآن هو ابني شادي الذي خرج يتبعه ويلهث وراءه .

هنا قالت أم خالد لسامية :

ـ ولماذا لم تبلغ الشرطة؟

لقد رفضت قائلة :

ـ لماذا الشرطة؟ إن اللص لم يسرق شيئًا فلا داع للقلق .

قالت أم خالد :

ـ بصرف النظر عن أنه لم يسرق شيئًا ، وذلك لأن شادي قد فاجئه فهرب ولكنه جاء في الأساس ليسرق . إن هذا تهاون قد يشجع اللص لتكرار هذا التصرف .

صمتت أم خالد قليلاً وقالت كمن تذكرت شيئًا مهمًا :

ـ وكيف غاب عن ذهنكم الرائد شريف فهو أقدر ما يكون على عمل اللازم تجاه هذه الأمور . فهي من صميم عمله .

قالت سامية بشجن :

ـ شريف لم يغب أبدًا عن ذهني في أي وقت ، لقد كان أول من اتصلت به ولكني لم أجده في مكتبه فتركت له رسالة بضرورة الاتصال بي عند عودته .

قالت أم خالد تضع نهاية للقصة كما تصورتها :

ـ آه ولقد مر الوقت ولم يتصل بك فاعتبرت ذلك إهمالاً لشئونك وصنعت من الموقف البسيط مشكلة أكبر من حجمها . . معذورة أنت يا سمسمة فإنها أول تجربة حب حقيقية في حياتك أردت أن تعيشها كما جاءت في الأساطير .

انتفضت سامية واقفة ولم تعر الكلام أدنى انتباه . وقالت وكأن صوتها جاء من قاع بئر عميق سقطت فيه :

ـ جاءني شادي ابن شقيقتي مرتعداً يرتجف قائلاً بهمس وبحسرة .

ـ آه . . لقد هرب النذل يا خالتي . . زاغ مني اللص .

قلت أهون عليه :

ـ شادي يا حبيبي لا شيء يهم، اتصلت بي أمك وأخبرتني أنه لم يسرق شيئًا .

قال بغيظ :

ـ لا بل سرق قميص أبي، جذبه من على الشماعة ليستر به جسده العاري وهو خارج يهرول يخفي وجهه وأنا أحاول اللحاق به .

قلت له أهون عليه :

ـ لا تقلق يا حبيبي سنذهب سويًا إلى مكتب صديق ضابط شرطة نقص عليه ما حدث وسيقوم هو بعمل اللازم ـ شادي هل يمكنك التعرف على اللص؟

قال بثقة :

ـ نعم يا خالتي برغم أني لم أستوضح ملامح وجهه جيداً إلا أن هيئته لن تخطئها عيني وأستطيع التعرف عليه ولو في الظلام .

انطلقت أنا وشادي إلى مكتب شريف حبيبي وخطيبي، وما إن خطونا داخل مكتبه حتى وجدته قد اصفر اللون مضطرب، ألجمته مفاجأة وجودي أنا وشادي أمامه، وفي لحظة مفاجئة قفز شادي تجاه شريف وأمسك به صائحًا .

ـ إنه اللص . . إنه اللص .

عقدت المفاجأة لساني وصحت أعنفه وأقول :

ـ لا يا شادي إنه الرائد شريف وجدي . . يبدو أن الواقعة أثرت على أعصابك فما عدت تفرق بين الضابط واللص .

صاح شادي :

ـ أقسم لك يا خالتي إنه هو اللص . . إنه اللص .

وأسرع شادي ناحية شماعة علقت عليها بعض الأغراض وجذب قميصًا كان طرفه يظهر بين الأشياء المعلقة . . أخذه بين يديه ومر من أمامي يغادر المكتب وهو يصيح :

ـ يا خالتي إنه هو اللص . . اللص سارق أمي، وهذا قميص أبي .